مجموعة قصصية

ميكس شيدر

ميكس شيدر
تأليف : دعاء عبد المنعم
الإخراج الداخلي : إسلام الحماقي
تصميم الغلاف : أحمد فرج
مدير النشر: أحمد خطاب
رقم الإيداع: 25953 - 2017
الترقيم الدولى: 978-977-6598-27-0
الطبعة الأولى: 2017
إشراف عام : أحمد عبد الجواد

مؤسسة عابر للنشر والتوزيع

01007677910 - 01111883712
3aberorg@gmail.com
www.3aber.org
3aber عابر

جميع الحقوق محفوظة، وأى اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابى من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

مجموعة قصصية

ميكس شيدر

دعاء عبد المنعم

عبر

إهداء،

إلى من قال لي في أول حديثٍ لنا: «احكي يا شهرزاد» ، ولم يكُن قد علِمَ بعد أنني أهوى الحِكاية، أو تُغويني.

شجاعة

وقفنا على حافة الطريق، نرقب الفارّين من الجحيم، ونشفق على من انفصلت رؤوسهم عن أجسادهم..

نعلم أن الشفقة في موقفٍ كهذا هي منتهى الخِسّة، غير أن الخسة في زمننا هي عين الشجاعة.

سألتني ابنتي ذات الأعوام الثلاثة:

- بابا.. ما معنى الشجاعة؟

ضحِكتُ ضحكةً أرعبت الطفلة.. جحظت عيناها وتدلى فكها الخاوي من الأسنان إلا اثنتين، تحولتا إلى أنياب غول..

هل رأيت من قبل غولاً؟ ولا أنا، قبل الآن!

انغرس ناباها في فكي السفلي وهي تنظر إليّ بعينيها الجاحظتين، فقلت لها من بين دمي المتساقط: «الشجاعة يا فتاتي هي أن أراكِ تسفكين دمي وأحوّل نظري عنكِ حتى لا ينكسرَ ظفرك من مقاومتي.

في الجهة المقابلة..

تضاجع زوجتي رجلاً تتدلى لحيته إلى أسفل بطنه.. حسنًا، « تضاجع» ليس التعبير الأدق لما رأيت، «تُغتصب» هو الأكثر دقة.

يتناهى إلى سمعي صوت ضحكاتها المدوية.. هل تستمتع بالاغتصاب؟

لا أعلم! كل ما أعلمه أنني لم أرها تضحكُ هكذا في مرات لقاءنا التي أستطيع أن أُحصيها لك كاملةً.

يتدفق الدم من بين فخذيها..

يلعق الرجل الدميم الدمَ ويبتسم..

يدس رأسه بين فخذيها حيناً ثم يرفعه منتشيًا

يتخثر الدم بين شعر لحيته الطويل.. المشهد مقزز.

أحوّل بصري ناحية ابنتي الغول، أراها تأكل لحم أخيها وهي تبتسم وتقول: «نعم، هكذا أنت شجاع مثل أبي».

بنت وولد..

رنّ جرس انتهاء حِصّة الرياضيات، وبدأت حصة اللغة العربية.

جلسنا جميعاً مترقبين، ماذا سيفعل الأستاذ مجدي!

دخل الفصل مزهوّا تعلو وجهه ابتسامته التي تحاول أن تشق طريقاً للنور من بين شاربه الكث..

وبعد أن أدينا التحية المُنغّمة «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته»..

أشار لنا بالجلوس..

ثم قام باستدعاء كل طالبةٍ تجلس على طرف «التختة»، وكذلك كل طالب.. وترك من يجلس بجوار الحائط إلى مكانه..

نظرًا لطولي الملاحظ، لم أكن أستطيع الجلوس بجوار الحائط، وكان هذا أهم أسباب مشاحنات وعراك اليوم الأول للدراسة، منتهياً بفوزي بالجلوس على طرف «التختة»، فكنت ممن اختيروا للخروج للمجهول.

ماذا سيفعل بنا الأستاذ مجدي!! كانت نظراتنا المتسائلة تكاد تنطق، غير أنّ ذلك لم يحدث فالكل يخاف من مجرد ذكر اسمه فهو المُعلِّم الأكثر رهبة في المدرسة، بسبب لسانه السليط.

قام بإعادة توزيع أماكن جلوسنا بحسب «الشطارة»، كُل طالب «شاطر» يجلس بجوار طالبة «بليدة»، والعكس..

كانت المرة الأولى التي أُحبّ فيها فشلي، فقد أجلسني هذا الفشل بجوار «نسرين»، البنت الأشطر والأجمل، والأحبّ لقلبي.. والتي تقابل كل محاولاتي للتودد لها بالنظرات المتعالية..

جلسنا لأداء الاختبار، فتحت كرّاستها بحرص على وضعٍ عموديّ يستند إلى ذراعها ويُخفي ما تكتبه.. دسّت رأسها بداخل الكراس فلم أستطع أن أرى وجهها..

في لحظاتٍ مرّت كلمح البصر، انتهت من حلّ الامتحان، وقامت لتُسلِّم إجاباتها ثم وقفت بجوار الأستاذ مجدي وهو يقوم بتصحيحها، بينما لم أكن قد بدأتُ بقراءة الأسئلة حتى!

هكذا اللحظات الجميلة تمضي بسرعةٍ كرمشة عينٍ منها.

* * *

أخبرنا المُعلِّم أننا سننقسم هذه الحصة منعاً للغش.. ستجلس كل فتاة بجوار أحد الفتية..مرّت لحظات التقسيم دهوراً طويلة، وأنا أترقب من الذي سيجلس بجواري

«كريم، خذ كراستك واجلس بجوار نسرين»

ماذا!

كريم؟!! الأكثر بلادةً وبلاهةً؟!! لا لا! مستحيل، إنه راسب! وأنا لا أحبه أبدًا

لا أُنكرُ أنني فرحت بعض الشيء، فجلوسه بجواري هو صك مُنهٍ بأنني الفتاة الأشطر..

هممت بأن أعترض غير أنني تذكرت لسان الأستاذ مجدي السليط فكتمت غيظي وظللت أرقب باقي التقسيم بقلقٍ لا أدري له سبب.

«نادر، اذهب واجلس بجوار أسماء»

يا للحظ التَعِس، أيجلس نادر المتفوق بجوار أسماء وأجلس أنا بجوار كريم!

كم أنتِ محظوظة يا أسماء، أحيانا يكون الفشل هو طريقنا للسعادة.

جلس نادر وأسماء في «التختة» الأولى بجوار الأستاذ مجدي..

أنهيت امتحاني بأسرع ما أمكنني، وذهبت إلى المُعلّم ليصحح لي ما كتبت.

وقفتُ تماماً بجوار نادر، وودت لو كنت الجالسة إلى جواره..

كانت هذه المرة الأولى التي أكون قريبة منه لهذا الحد.

غرورٌ قاتل

تحت تأثير «حكم القوي على الضعيف» أمسكتُ بقلمي وحاولت أن أكتب.

عبثًا حاولت إخبار ذلك القوي أن الكتابة مثل الوحي لا وقت لها، لا مكان، ولا مناسبة.

هل قرأت عن أحوال الأنبياء وقت نزول الوحي؟ أنا أيضًا لا أعلم فقراءاتي ضعيفة في السير.. لم أهتم بها يومًا، لكن دراستي الدينية أطلعتني على الكثير من أحوال نبي الإسلام. فقد ورد مثلا أنه لما كان ينزل عليه الوحي كان يتفصّد عرقًا في شدة البرد.. وأنه كان يُثقل على الدابة حتى لتكاد تقع، وورد أنه أحيانًا كان يغيب عن الوعي ثم يعود ثانية. وقيل إنه يتغير وجهه، يحمرّ ويصير بلون الرماد.

لا، لا لم يسبق أن حدث لي شيء من ذلك فلم أدّعي النبوة بعد، لكن الأمر به وجهٌ من الشبه!

تأتِني الفكرة. فتأخذني من عالمي إلى عالمها، حتى تنتهي مني أو أنتهي منها. إن حدث وتكاسلت عنها، تمُسِكُ بتلابيب عقلي ولا تدعه حتى تموت، أو تخرج إلى العالم.

اليوم، جلست لأكتب. أمسكت قلمي، لا أدري ماذا سأكتب! لم تأتِني فكرة! ولكن لا بأس، سأجلبها أنا. أغمضت عينيّ وسافرت، سافرت بعيدًا بعيدًا..حتى انتهت رحلتي بعالم الأفكار

طرقتُ الباب ولم يتطوّع أحد بالرد عليّ.. طرقت وطرقت وطرقت، ثم طرقت ولا إجابة.. يئست. عزمت على العودة.. لكن ذلك (القويّ) أجبرني على الوقوف. ظللت واقفة حتى أيقنت أنني غير مرغوب فيّ اليوم.. وعلى الرغم من ذلك، دفعني الفضول إلى التسلل إلى ذلك العالم.. الغريب - الشيق، والمُخيف في آن.

يبدو أن هذا هو وقت قيلولة الأفكار فقد كان الطريق خاليًا إلا من صناديق معدنية كُتِب عليها:»محطة الدعم«، لم أفهم أيّ دعمٍ هذا.. واصلت سيري بحثًا عن فكرة ترحمني من القيظ.. عالم الأفكار درجة الحرارة فيه هي درجة «السَيَحان».. لا ليس لمفردة «الانصهار» وجود في هذا العالم.

بينما أنا مستغرقة في أمانيّ تلك إذ رأيتها أمامي.. تتبختر في مشيتها وكأنها تقول:» يا أرض اتهدي ما عليكي قدي«.. لم أندهش من استخدام أمثالنا الشعبية في عالمهم فمن عاشر قومًا صار منهم.

ركضتُ نحوها، لم يبدُ عليها التأثر لوجودي، استوقفتها:

- معذرة آنسة فكرة..
- خيرًا؟
- هل من الممكن أن نتحدث قليلًا؟ عالمكم حار جدا، خالٍ من الأفكار إلّا أنتِ

- حقًا؟ أأنت عمياء؟ أهذا جو حار؟ وخالٍ؟ أما ترين؟ مئات الأفكار تسير أمامك.. أووه، لا أحب طريقة الشباب المصري هذه في لفت الانتباه!

- قلتُ معترضة: أأنا العمياء؟ أنا فتاة ولست شابًا!

- حسنًا! نعم.. نعم أنتِ فتاة، ولكنكِ سليطة اللسان.. دعيني أُكمِل طريقي! وابتعدت عني

شعرت بالضياع وهي تقول بأن الشارع يعج بالأفكار وأنا لا أرى سواها، كيف لا أستطع أن أرى كل هذه الأفكار؟ هل هذا يعني أنها الفكرة المقصودة؟ أم أنها تتلاعب بأعصابي؟

أيُّ ورطةٍ هذه! ابتلعت ريقي بصعوبة وبلهجةٍ حاولت أن تبدو ودودةً قدر الإمكان قلت بعد أن استوقفتها:

- أعتذر منكِ آنسة فكرة، وقاحتي تلك - على ما يبدو - سببها توتري، أنت تعلمين.. أنا في عالم غير عالمي.. وحينما يخرج المرء من عالمه المألوف يبدو من الفظاظة بما يحاول أن يتغلب به على ضياعه.

- وبعد؟ ما المطلوب؟

ضايقتني فظاظتها، لكنني لم أرد لها الإهانة فحاجتي إليها أكبر من رغبتي في الثأر، قلت:

- لا شيء عزيزتي، هل تمانعين في قضاء بعض الوقت سويًّا؟

- لماذا؟

- فقط لمجرد الدردشة، هل أنت ملتزمة بميعادٍ مثلا؟

- لا .. كنتُ فقط أتسكّع لأستمتع بالجو.

- جيد.. إذًا هل تُمانعين في التسكع سويًّا؟ أنا أيضًا أهوى التسكع، أتعلمين أنني أثناء إحدى مرات تسكعي قابلتُ فتاةً جميلة.. تشبهك تمامًا!

أزاحت نظارة عينيها، رمقتني نظرة استنكار وقالت: «يبدو أنكِ ثرثارة ولن أستطيع الخلاص منكِ.. حسنًا فلنذهب»

مشينا سويًّا.. ساد صمتٌ محرج اقتطعته بسؤال: عزيزتي فكرة، هلاّ حدثتِني عنكِ قليلا؟

صرخت: انتبهي أيتها الحمقاء! أأنتِ من المتحرشين بالأفكار؟!!

لم أفهم كلامها فقلت مستفسرةً:

- عفوًا؟

- لا شيء، كنت أمزح معكِ.. فقط حاولي التزام أداب السير في عالم الأفكار حتى لا تعيقي حركة مروره.

فغرتُ فاهي وهممتُ أن أسألها عن آداب السير تلك، إلا أنها قالت لي أن قانون عالم الأفكار يحظر عليها التحدث عن حياتها الشخصية مع الأغراب، فقط.. الشخص المختار هو الذي يُسمح لها بالتحدث معه عن أدق تفاصيل حياتها.

ازدردت ريقي في محاولة لبلع الموقف المحرِج، وقلتُ لها: «حسنًا ما رأيك في أن نلعب لعبة؟»

راقها الاقتراح فقالت بلهفةٍ: «لعبة؟ أيّ لعبة؟»

قلتُ: « أقوم بتخمين مُجمل تفاصيل حياتك، إن أصبتُ تُخبرينني بالتفاصيل.. وإن أخطأت..

امتلأ الجو بصدىً لكلمةِ «أخطأت».. تبادلنا النظرات المُتسائلة، حتى أشارت إلى لوحة رخامية ظهرت على يمينها فجأة!

تحولت ببصري فرأيتُ حروفًا مكتوبة، لم أستطع قراءتها فقد كانت مكتوبة بلغةٍ لا أعرفها ولا أستطيع حتى تمييز حروفها.

سألتها: «ما المكتوب؟»

– تمت الموافقة على اللعبة من المجلس الأعلى لعالم الأفكار، كُتِبَ عليها: «إن أصابت اللاعبة تصبح هي المختارة، وتقصين عليها حكايتك، وإن أخطأت... ستموتين، لها في ذلك خمس عشرة محاولة، بعد كل محاولة خاطئة تفقدين جزءًا منكِ حتى إن كانت الخامسة عشر الخاطئة تتلاشين تمامًا، وتفقدين حياتك.»

قالت ذلك وهي ترتجف.

أشفقتُ عليها، فالمسكينة التي قابلتها صدفةً أصبحت حياتها كلها مهددة بخطر تخميناتي.

قلتُ بصوتٍ حاولت أن يكون ثابتًا:

– حسنًا، هذه لعبة خطِرة لا حاجة لنا بلعبها.

– كان القرار ممهورًا بألا فرصة للتراجع!

نزلت عليّ كلماتها المختلطة بدموعها كالصاعقة الحارقة...أأصبحت أنا المسئولة عن حياتها؟!! وأنا التي لا تستطيعُ حتى تحمّل مسئولية ترتيب غرفتي!

نظرتُ حولي في محاولة لتفقد طريقٍ للهرب، فلن أحتمل أن تنتهي حياتها بسببي.. في كل اتجاه نظرتُ إليه كان يقف شرطي دميم، يحمل لافتة كُتِب عليها شيئًا لا أستطيع قراءته، كل ما لاحظته أن المكتوب هو ذات الشيء.

سألتها بصوتٍ جاهدت لإخراجه:

- ما المكتوب؟

- «فات أوان الهرب»

اندهشت! كيف عرفوا أنني أنوي الهرب؟ ثم تذكرت أنني في عالم الأفكار فزالت دهشتي.

حاولت أن أخفف عنها، أحيانًا نلجأ للهرب من مخاوفنا بحثّ الآخرين على مشاركة مخاوفهم معنا.. قلت لها:

حسنًا، حسنًا لا تقلقي سنلعب وستكونين بخير، أمامنا خمس عشرة محاولة كما ترين، وأنت فكرة جميلة لن يجرؤ الموت على الاقتراب منك

ابتسمت من بين دموعها وقالت «سنرى»!

صدر دويّ يشبه ارتطام الأواني الألومنيوم بالسيراميك، ونادى صوت أجش: «المحاولة الأولى»

ها قد بدأنا إذًا!

يجب عليّ استنفار جميع خلايا تركيزي، فلا مجال للخطأ هنا. الأمر مصيري

«حسنًا دعيني أُخمِّن.. هل أنت فكرة علمية؟»

انكمشت الفكرة وبان في عينيها الفزع، فعلمت أنني أخطأت.

قلت: «إذًا أدبية؟»

ابتسمت وعادت إلى حجمها الطبيعي وقالت: «لنُكمل»

انفرجت أساريري وقلت: «رواية؟»

انكمشت!!

حاولت تدارك الأمر فقلت: «قصيدة شعر؟»

تضاءل حجمها أكثر، وطفرت دمعة من عينيها.

ترددت قليلا ثم قلت: «قصة؟»

لم يحدث لها أي تغيير للأسوأ، فقد كانت محاولة صائبة؟

استطردت:» حسنًا وما هو موضوعك أيتها القصة؟ أأنت حاكم متسلط يذهب ببلاده إلى الهاوية؟» وما كدت أتلفظ بذلك حتى حاولت التراجع فقد كانت فكرة جميلة لكن الأوان قد فات فقد انكمشت حتى صارت في حجم فتى في العاشرة، أوحي لي حجمها بأن تكون فتى تعرض للاعتداء من جاره الذي يأتمنه أبواه عليه حتى عودتهما من العمل.. ولكن لم يكن احتمالا صحيحًا فقد انكمشت أكثر!

لم تكن قصة تاريخية، ولا رومانسية ولم تكن فانتازيا.

الآن قد أصبحت في حجم هرة وهذا مؤشر مثير للذعر، والتوتر الذي يستلب التركيز.. نظراتها كانت ملأى بالكلام ولكنها غير قادرة على النطق.

قلت بحذر: «هل أنتِ رجل لعوب متزوج بجميلة ويهوى القبيحات؟»

هزت رأسها أسفًا.

بدأت دقات قلبي بالتسارع.. قلت: «مريض يهوى زواج الصغيرات؟»

بكت.

قلت: «داعية يستخدم مهنته لخداع السيدات؟»

قالت بصوت يشبه الفحيح وقد أصبحت في حجم كف اليد: «أرجوكِ حاولي التركيز»

قلت وأنا أرتعد: «أنا أبذل جهدي.. فتاة فقيرة أحبّت زميل دراستها الثري؟»

تضاءلت ولم تكف عن البكاء!

صرخ الصوت الأجشّ مُنبِّهًا: «بقيت محاولات ثلاث»

وكأنني في حاجةٍ لتوتر أكثر!

أما الفكرة فكانت نظراتها هي فتىً يُجرُّ إلى غُرفة الإعدام.

قلت وأنا أتحسّس حروفي: «شابٌ.. مريض.. وسيموت.. بعد.. أيام.. قليلة؟؟»

صاح الصوت: «محـاولتـــان».

نظرت لها في أسى وقلت:» رواية مهجورة تطارد مقتنيها الكسول؟»

بوقٍ –كأبواق الحرب – أصدر صوتا، تلاه الصوت الأجش قائلا:» محاولة واحدة«.

هرب ما كان قد تبقى مني من دم، وأصبحت باردةً كجثة.. فهذه الفكرة المسكينة ستموت بلا أي ذنب سوى أنها قابلتني.. تساءلت في نفسي ماذا سيحدث لو لم أحتمل وقاحتها وتركتها تذهب؟ على الأقل كانت ستبقى حية!

قالت الفكرة في صوتٍ جاهدَت كي أسمعه:» هل تعلمين؟ سأموت.. لستُ حزينةً لذلك.

ما يُشعل الألم في جوفي أن محاولاتك ظلت داخل حيز الأفكار المستهلكة، عدا الأخيرة ففيها شيءُ يسير من الابتكار.

الفظي احتمالك الأخير ودعيني أموت في صمت.. فأنتِ فقيرة الفِكر، ضحلة وبائسة. لا تستحقين الاطلاع على حياتي.

أغاظتني كلماتها، وتحولت مشاعر الشفقة عليها إلى مشاعر حقدٍ وغضب. «فقيرة؟» قلت بسرعة وكأن القذائف تنطلق من فمي: «أنتِ فتاة أصبحت بغيًا لأنها لم تستطع أن تتدبّر مصدر رزقٍ حلال»!

تلاشت الفكرة وحلت محلها قطرة دمٍ، بحجم دم بعوضة مسحوقة.

ماتت الفكرة وأنا لا أدري.. أأحزن لأنني كنت سببًا لموتِها، أم أفرح لموت تلك الفكرة الوقحة المغرورة!

في صحبة نجيب محفوظ

رأيت فيما يرى النائم أننا كنا على سفر..

هذا الطريق نسافر عبره دوما، طريق غير ممهد، على جانبيه بقايا أشجار، ممتلئ بالمطبات والحفر، لا يشبه كثيرا - أو بأي حال في حقيقة الأمر - طريق السفر الحقيقي.

مارست هوايتي المحببة في متابعة الطريق وقوفا في ممر الأتوبيس، ثم ما لبثت أن مللت هذا الطريق الذي سرت فيه مرارا مهما اختلفت وجهتي، وقررت أن أجلس.

جلست فوجدت أمامي نجيب محفوظ!! أخذت لمرآه، ظللت أحدق فيه لفترة طويلة، لا أستطيع كلاما، ولا يكف كلانا عن النظر لصاحبه.

كان عجوزا، غزا الشيب رأسه وغارت عيناه في محجريهما، تماما كما في أواخر أيامه، تبرز شامته التي تسكن جانب أنفه الأيسر، غير أنه لم يكن مرتديا نظارته.

كان هادئا، تنظر له فتشعر بفيض من الطمأنينة يغمر روحك، كنت أشعر هذا، وظل شعورا مرافقني بعد صحوي، تدور برأسي عشرات الأسئلة، لكنني لا أقوى على طرحها خشية إزعاجه، وأخيرا قررت سؤاله، فبادرته بسؤال على استحياء:

– عم نجيب، رأسي يغص بالأسئلة، أشعر بالحرج من طرحها خوفا من إزعاجك، ولكنني أروم النصح.

أسرع – وكأنما كان ينتظر مبادرتي – قائلا: «ورأسي يضج بالكلام الذي يريد أن يصل إليك».

قال ذلك بلهجة بدت ودودة، مما شجعني على السؤال بحماسة:

– هل الشعور بالحيرة في اختيار الشخصية بطلة قصتي هو أمر طبيعي؟ أشعر بحيرة شديدة حد توقفي عن الكتابة أصلا، فهل من حل؟

قال وشبح ابتسامة يعلو وجهه:

– هذا أمر هين يا بنيتي، في القصة، قد وهبك الإله جزءا من صفته، «الخالق»، أنت المتحكمة في كل شيء، أفرغي على الورق كل ما يدور برأسك مهما كان دون تفكير، اقرأيه، لم يعجبك؟ حسنا، هذا أمر طبيعي، قومي بتغيير البطل، من رجل لامرأة، من شاب لـ...

هممت أن أقاطعه بأن المشكلة ليست في جنس البطل، ليس كونه رجلا أو امرأة أو طفلا، غاية ما يؤرقني أنني لا أستطيع تخيل الأمر الذي ينبغي أن تكون عليه الفكرة التي تقض مضجعي وتؤرق أحلامي، لما انشغل ذهني قال كلاما كثيرا لم أنتبه له، ولما لاحظ انصرافي عن كلامه، عاد إلى صمته والتفت يتابع الطريق.

بدوري التزمت الصمت وتحولت إلى النافذة ممتلئة بخيبتي.

ولما كنت مغرمة بتفسير الأحلام، استفقت من نومي أستعيد مشاهد الحلم مشهدا تلو الآخر في دهشة لا يبدو أنها ستزول قريبا.

جل اندهاشي كان مؤسسا على أنها لم تكن المرة الأولى التي يكون فيها نجيب محفوظ زائرا في منامي، فمنذ حوالي عام كنت في زيارة لمنزله وتناقشنا حول روايته الأشهر «أولاد حارتنا»، التي بدوري كنت قد قرأتها قبل ما يقارب الأعوام الثلاثة.

أتذكر جيدا أنني حاولت أن أسأله عمن يقصد بـ «الجبلاوي» فيها، فأخبرني أن الكاتب يفقد سيطرته على النص حينما يصبح بين يدي القارئ، وعليه، فهو لا يمتلك تفسيرا يمكن أن يسوقني لمن يقصده بشخص الجبلاوي.

السبب الثاني الذي يثير الدهشة في كوامني، أنني لم أهتم يوما بشغف بقراءة أدب نجيب محفوظ، كل ما قرأته له كان «أولاد حارتنا» و«أصداء السيرة الذاتية»، الأولى التي صدتني عنه، والأخيرة التي رأبت الصدع.

هاتف ذكي.. جدًا

عندما اشتريتُ هاتفي الجديد لم أكن على دراية بكيفية تخزين الأسماء فيه.. حسناً فلأعترف، أصبحتُ – على حين بغتة – من جيل «الكِبار» الذي يتعامل بصعوبة جمّة مع التطورات التكنولوجية.

كان اسمك أول الأرقام التي عليّ القيام بتخزينها..

كتبت الرقم.. صفر واحد ثلاثة خمسة اثنان سبعة سبعة صفر أربعة ثلاثة.

أين خَيار الإضافة إلى جهات الاتصال؟

ها هو.. عثرتُ عليه بصعوبةٍ لم تنقصها لذة الاكتشاف..

وضغطت على خيار الحفظ.

ولأتأكد من حفظه، فتحت جهات الاتصال، فلم أجده.. يبدو أنه قد حدث شيء ما خطأ.

كررتُ عملية التخزين ثانيةً، ولدرء احتمال فشل العملية غيّرت الاسم..

في المرة الأولى سجلته باسم: «عبد الجابر».. وفي الثانية « جابر» فقط.

وبحسب ما تعارفنا عليه.. جابر هو اسم الرضا، وعبد الجابر هو اسم أوقات الغضب.

لأتأكد من نجاح العملية تفقدت جهات الاتصال ثانيةً فلم أجد الاسم محفوظاً.

حسناً، لا داعي للتسجيل الآن فأنا أحفظ الرقم عن ظهر قلب.

ما حدث بعد ذلك كان غريباً..

في أوقات شجارنا – الكثيرة – كان يظهر الاسم عند تلقي المكالمة «عبد الجابر»، وحالما تحلّ أوقات الرضا يظهر «جابر» كاسم المتصل.

هل تصدق أنني بِتّ أتنبأ بمواعيد شجارنا، وهل سنحل الشجار في هذه المكالمة أم لا من الاسم الذي يُظهره الهاتف؟!!!

الأمر مريب حقاً، هل أصبحت الهواتف ذكية إلى هذا الحد؟

صياد نبحث له عن قاتل

هنا، بالداخل، كنا ننتظر أمي حتى تأتينا بطعام الغداء.. أحيانًا كانت تغيبُ كثيرًا، ومراتٍ قليلة كانت تأتينا بسرعة.

في ذلك اليوم أتتنا بطعامٍ كثير، كثير جدًا على غير العادة، فرحنا كثيرًا فقد كانت المرة الأولى التي نرى فيها هذا القدر من الطعام. مهمومة، تُغالِب دموعًا ترقرقت في عينيها، للمرة الأولى أيضًا، لم ترغب في تناول الطعام معنا. للمرة الأولى لم تتفاعل مع مشاكسات الصغار بل أبعدتهم عنها، وانكمشت على نفسها في ركن الغرفة صامتة، ساكنة وحزينة كما لم نرها من قبل.

طار النوم من عيني، فانشغال البال يطرد النوم كمحتلٍ يُنكِّلُ بشعبٍ قلّت حيلته. ظللت أراقب صمتها، وإلحاح أبي المتكرر لأن تخبره بما بها.. حكى لها عن معجزة هربه عن بنادق الصيادين الذين انتشروا في أرجاء المدينة وحول جميع أشجارها.. انفكت عقدة أمي بعد حديثه، وأخبرته أن: «صديقتي اقتُنِصت وهي عائدةٌ إلى صغارها بحبات القمح الصغيرة، سقطت على الأرض واختطفتها أيدي الصيادين حتى دارت معركةٌ سال على إثرها دم ثلاثة أطفال من أطفالهم، دُهِسوا تحت أقدام ذويهم أثناء شجارهم حول من الذي أسقطها، ومن أحق بها. ساعتَها شعرتُ بالدوار، غامت عيناي وكادت تصيبني إحدى رصاصاتهم لولا أن أصابتني عناية الله فاختبأت داخل أحد

أجولة الأرز التي لا يجرؤ صياد منهم على الاقتراب منها.. ظللت هكذا مدة مرّت دهورًا، تسللت ومعي الكثير من حبات الأرز فرح بها الأولاد، لكنني لم أستطع أن أقربها».

بعد عدة أيام قالت لنا أمي أننا كبرنا ويجب على كل واحد منا أن يحصل على رزقه بنفسه، فما تجنيه لا يفي باحتياجاتنا الكثيرة، فقد كنا عشرة أفواهٍ مفتوحة. حذرتنا كثيرًا كثيرًا من الصيادين، وودعتنا وداعًا بدا أنه الأخير، وارتكنت في زاويتها التي لم تبرحها منذ مقتل صديقتها إلا للحصول على الطعام. صحيح أننا أصبحنا نتحرى في خروجنا مواعيد نوم الصيادين غير أن ذلك لم يمنعها من القلق!

كانت هذه المرة الأولى التي نخرج فيها جميعًا من المنزل، وكانت المرة الأولى التي تبقى فيه أمي بمفردها.

بعد مشقةٍ حصلت على ما تيسر لي فقد أصبحت الأشجار خرابًا لا أوراق فيها، ومن باب أولى لا طعام. عشش الأصدقاء التي كانت تختفي داخل الشجرات لم يعد لها مكانًا وأصحابها لا أثر لهم.

عدت إلى المنزل، وما إن اقتربت حتى وجدت إخوتي متحلقين حوله في حركة غير عادية. لا بد هناك أمر جلل. اقتربت لأستطلع الأمر فوجدتهم يتصايحون «ماما! ماما! ماما!» وفي منزلنا يظهر إحدى الصيادين، كان يصرخ بهستيريا ويضرب على حائط منزلنا حتى كاد يتحطم بين يديه. لم نفهم ماذا يقول لكن حركاته تشير إلى أنه في ورطة، كان منزلنا ضيقًا وغير مريحٍ بالنسبة له، لكنه كان ملاذ الراحة لنا.

يبدو أنه كان يريد الخروج ولا يستطيع، ولكن ما الذي أدخله في منزلنا وكيف استطاع الدخول بجسده العملاق هذا، صحيح أن المنزل بالكاد ينحشر فيه ربع جسده فقط لكن ما الذي فعل به هكذا!

حاولنا مساعدته وفشلنا، ناديت على أمي ولم تُجبني.. بحثت عنها فلم أجدها.. لا أثر لها.. هذا الصياد يصرخ بطريقة تمنع عني التفكير، صرخت بالمقابل فيه أن يصمت حتى نجد أمي لكن صوتي لم يكن مخيفا له بالدرجة الكافية. لا أستطيع أن أجزم أنه قد وصل إلى سمعه أصلًا!

على يديه أثر دم، ويخرج من جيبه طرف شفرة ملتصق بيها بعض الريش على الدم المتخثر فيها. إذا هذا الصياد قد قتل أمي! قتل أمي ونحن نحاول مساعدته في الخروج؟

تركناه يصرخ في بيتنا ورحنا نبحث عن ملاذٍ لا يتسخ بدم أمنا.

الكرسي المسحور

استسلمتُ لإلحاح أمي بالذهاب لحديقة القرية لأخذ بركة «الكرسيّ المبروك».. لم أؤمن يوماً بالخرافات التي تمتلئ بها عقول أهل القرية، بدءاً من الوليّ الذي يجعل العاقر «حِبلة» وصولاً للكرسي الذي لا تستعصي عليه مشكلة.. مهما كانت مصيبتك كبيرة، ما عليك سوى أن تجلس ساعةً واحدة على هذا الكرسيّ ثم تقوم وقد حُلّت مشكلتك. «طبعاً محض هراء» قلت هذا صارخاً في وجه أمي الذي امتقع حين علمت أنني ذهبت للكرسي من دون علمها. «كلام فاضي ماله معنى! أديني رحت أهه وماجراليش حاجة.. لا الديون سقطت ولا الولية رجعت». قالت وهي تحاول أن تهديء من روعي: «بس ياولدي أنت رحت ف أيام النحس!»

- نحس؟عليا الحرام مافي نحس أكتر من كلامكم الخايب دا
- بس اسمع مني!
- ما اسمعش
- اهدى بس يا ضنايا.. رح أحكيلك حكاية الكرسي ومن بعدها اعمل اللي يحلالك.. ياولدي، الكرسي دا غريب صُح.. وأنا زيك كنت أقول دا كلام ماسخ مالهش أصل.. لحين ما أبوك كان هيطلقني.. وقتها عقلي طار مني.. مادريتش بنفسي غير وانا على الكرسي وببكي.. أبوك كان دائما يقول لي: ما

رأيتك تبكي مثل البكا دا يا هنية.. وضمني ليه وبكى معاي! يومها اتوكد لي إن حديث أهل البلد صح.. ما تخاريف ولا نقص عقل نسوان.. لكن انت اليوم رحت اليوم النحس.. واللي يروح النحس لازم له يروح مرات تلاته في الرضا، في تلات دواير للبدر.. لجل ما تنفك كربته.. أيام الرضا لحد اليوم العشرين في الشهر العربي، اليوم الواحد والعشرين تبدأ أيام نَحِسات.

لم أقتنع بحديث أمي تمام الاقتناع غير أنها استفزت فضولي ففعلت مثلما قالت.

في اليوم الثالث للشهر الثالث منذ قصت عليّ أمي تلك القصة وبعد أن جلست ساعةً على الكرسي المسحور.. رنّ هاتفي.. أخبرني المحامي أن زوجتي تنازلت عن دعوى الخُلع وقبلت الصلح.. وهاتفني الحاج أبو رأفت قائلاً: أنه لأجل خاطر والدي الذي كان صديقه فقد مدّ أجل دَيْني سنة أخرى.. ومكالمة ثالثة من الحاج سويلم أخبرني أنه تنازل عن ما بقى له من مال عليّ لأنه ذاهبٌ أداء فريضة الحج ولا يضمن إن كان سيعود أم لا.

عدت إلى أمي أتقافز من فرط السعادة.. استقبلتني بابتسامة الرضا وقالت: «يا ولدي بركة العدرا.. ربنا صاينها» قلت مذهولاً: «العدرا؟!!..وايش دخّل العدرا؟!» قالت: «أهل البلد هيقولوا إن الكرسي دا العدرا ارتاحت عليه لمّا مرت بمصر في رحلتها.. من دا اليوم وبركتها محاوطة المكان»

أثار كلام أمي سخريتي من خرافات أهل القرية أكثر من ذي قبل، فهذا الكرسي يستحيل أن يكون قد وُجِدَ قبل ألفي سنة.. لا أظنه قد كان موجوداً قبل مائة عامٍ حتى.

وفي تلك اللحظة.. عزمت أن أعرف سرّ هذا الكرسي.

في يوم النحس الخامس ذهبت إلى الحديقة الواقعة على أطراف القرية.. في هذه الأيام تصبح الحديقة خاوية على عروشها.. كانت فرصة ذهبية لاقتطاع جزء غير مرئي من خشب الكرسي دون أن يلحظ أهل القرية. أخذت القطعة وذهبت بها إلى صديقي الدكتور رياض المتخصص في علم النباتات ليفحصها.. بعد أسبوع أخبرني بأن عمر هذه الخشبة يبلغ حوالي مائة عام وعشرة ازداد فضولي لمعرفة قصة هذا الكرسي.. بالطبع لم أخبر رياضا بمصدر الخشبة فلو أخبرته لما قبِلَ أن يفحصها.. فهو مع نيله أعلى الدرجات العلمية إلا أنه لم يتخلص بعد من سيطرة الخرافات على عقله..

عدت إلى منزلي أفكّر في الطريقة التي سأصل بها إلى سر هذا الكرسي.. وبعد تفكير لا يقطعه سوى النوم.. جاءني صوت - حاولت تبيّنه ولم أستطع - قائلاً «يا إدريس إن أردت أن تعرف سر الكرسي فتعال اليوم إلى الحديقة قبل غروب الشمس، ولكن احذر! فهذا السر لم يطّلع عليه بشرٌ قبلك إلا وكان الموت مصيره».

إلا كان الموت مصيره قبل الغروب الليلة الموت الليلة الغروب السر الكرسي الموت الليلة

استفقت وأنا أردد هذه الكلمات.. وجلٌ ومرتعب. لكن فضولي كان أقوى من الخوف.

وعند غروب شمس آخر يومٍ من أيام النحس، جلست مختبئاً خلف الشجرة المقابلة للكرسي المبارك في انتظار تجلي السر.

وبمجرد انتهاء صلاة المغرب التي وصلت إلى سمعي عبر مكبر صوت المسجد الكبير.. ظهر على الكرسي عجوزان، أكل الدهر على جسديهما وشرب ومع ذلك كانا يبدوان أكثر شباباً مني أنا ابن الثلاثين. جلسا يتبادلان القُبَل في جلسة عشقٍ مُقدّسة، تبعثُ فيهما الجمال، وفي الكرسيّ البركة، وفي نفسي الطمأنينة.

في صباح اليوم الأول لشهر المحرم وُجِدَ إدريس ميتاً.. ولم تصل التقارير الطبية إلى سبب وفاته

درية.. بائعة الحلوى

كان خبرًا مثيرًا للهلع..

قررت وزارة التعليم منح أجازه لأجل غير مسمى للمدارس بمراحلها المختلفة..

الحمد لله أن ابنتي لم تبلغ بعد السنتين..

كل وسائل الإعلام لا خبر لها إلا شبكة الإرهابيين التي تتعقب طلاب المدارس وتقوم بخطفهم وقتلهم وقطع ألسنتهم وإلقائها بجوارهم في عَرَض الطريق.

المؤتمر الصحفي لوزير الداخلية أفاد بأن الشبكة الإرهابية تقصد زعزعة المواطنين وحثهم على الخروج على الرئيس المنتخب.. ولكن الشعب واعٍ بما يكفي ليدحض مؤامراتهم!

مذيعي البرامج التليفزيونية يحذروننا من التأثر بمثل هذه الشائعات فهي تسعى لتخويفهم وسد الطريق على إنجازات السيد الرئيس.

سبعون قتيلا، كانوا سببًا كافيًا لأن تُعلن الدولة حالة الطوارئ.

سبعون طفلًا تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والسابعة عشرة.. قُتِلوا جميعًا بالكيفية ذاتها.

كافة الأقسام والمديريات كانت متأهبة.. فقد صدرت الأوامر بأنه خلال عشرة أيام يجب أن تكون هذه العصابة في قبضتنا.. فالناس قد بدأت تتذمر.

توقفت عمليات قتل الأطفال لمدة ستة أشهر لم تجرؤ فيها أسرة على النزول بطفلٍ لها في الشارع..

نسي الناس، ونسينا العصابة.. وبدأت الحياة تعود إلى طبيعتها.

في اليوم الثالث لعودة المدارس.. بُلِّغنا بحالةٍ جديدة لطفلة في الخامسة عشرة من عمرها قُتِلت بنفس الطريقة، بعدما كنا قد نسيناها

خنق شديد.. ولسانٌ مقطوع وملقى بجانب الجثة.

تساؤلنا عن سبب هذه الطريقة بالذات في القتل كان منطقيًّا، ولكن كان بلا إجابة.

في اليوم التالي وأثناء استجوابي لشهود العيان.. أخبرتني طفلةٌ في العمر ذاته تقريبًا، جاءت مع والدتها، أنها كانت صديقة القتيلة ورأتها للمرة الأخيرة عند بائعة الحلوى في الكشك الجديد المقابل للمدرسة.. جالسةً على كرسي أمامه تنظر للمرآة ولساعتها..

«لوّحت لها ولم نتحادث لأنني كنت متأخرة» قالت ذلك في شهادتها.

يتناسب هذا مع ما جاء في التحريات من أن الفتاة وُجدت ملقاة بجانب المدرسة.

ولكن ما قصة السيدة صاحبة الكشك هذه؟؟

غريبة، لا يعرفها أحد من سكان المنطقة، ومع ذلك فقد أكدوا أنها يستحيل أن تكون القاتلة؛ فهي شابة في أواخر العقد الثاني على الأرجح، بشوشة الوجه، طيبة المعاملة.. ولم يرَ أحدٌ منها سوء منذ جاءت.

ترتدي عباءة سوداء، صحيح ليست أنيقة لكنها ليست رثة على أيةِ حال.

وبالبحث الذي لم يستمر طويلًا قبضنا على هذه السيدة التي توحي سيماها كما أخبر الشهود بأنها ليست قاتلة وليست محترفة!

المفارقة أنها لم تُنكِر!

أكدت أنها وحدها من قامت بقتل هؤلاء الأطفال وقطع ألسنتهم!

- ولكن دا مستحيل! تقتلي ٧٠ طفل!! ولوحدك؟؟ عملتيها ازاي دي!

لو معاكي حد وبتداري عليه من مصلحتك إنك تقولي عنه.. ما تداريش.

- يا باشا! بالعقل كدا..

لو احنا عصابة زي ما أنت بتقول هيبقى المكان الواحد مقتول فيه واحد بس؟ طب بلاش هيبقى كل أسبوع ولا عشر أيام واحد بيتقتل؟

- منطقي.. بس ازاي وليه؟ ولوحدك.. وانتِ مش باين عليكي إنك مجرمة يعني.

- أمر الله يا باشا!

- أمر الله! تقتلي ٧٠ عيّل وتقولي أمر الله! يا بت هو أنا بريالة قدامك! انطقي بدل ما ورحمة أمي أعرفك أمر الله على حق.

- مالوش لزوم يا باشا خيركم سابق.. مش انتوا قلتوا عليا في التليفزيون إرهابية؟ اعتبرني إرهابية وقل لي الإرهابيين بيقولوا إيه وأنا هقول زيهم وأبقى خلصتكم من الليلة كلها.

هذه المرأة تُخفي سرًا.. ليست ساذجةً على ما يبدو ولن يُجدي معها العنف. فلتكن محاولةً أخيرةً لقتل الفضول.

- بصي يا دُرّية. انتِ وراكي سر والظاهر كدا مش عاوزة تقوليه.. أنا قفلت المحضر زي ما أنتِ شايفة وهتتعرضي بكرة على النيابة وهما يتصرفوا معاكي بطريقتهم..

لكن أنا من نظرتي الخاصة شايف إنك مش بتاعت بهدلة ولا قتل.

إيه السبب اللي يخليكي تقتلي العيال بالشكل دا وتقطعي لسانهم وترميه جنبهم..

لو كنتِ عاوزة تقتليهم بس كنتي قتلتيهم وخلاص.. لكن السر كله ورا قطع اللسان دا..

قطعتي لسانهم ليه يا دُرّية؟

ما إن تفوهت بقطع اللسان حتي أصيبت بالهستيريا الشديدة والصراخ المتواصل وعلى لسانها كلمة واحدة « أنا مش طنط! أنا مش طنط! أنا مش طنط! أنا مش طنط!»

لم أفهم ماذا تريد أن تقول فانتظرت حتى هدأت وقلت لها:

- احكي لي إيه حكاية طنط دي ومضايقاكي ليه كدا!

حاولت لملمة شتات نفسها وقالت:

- يا باشا مالوش لزوم الكلام. إن كنتوا هتموتوني.. يلا موتوني وخلصوني. أنا ماحدش في الدنيا دي فهمني ولا هيفهمني.. ودوني عند اللي بيفهم ويقدر ويسامح.

مش انتوا عاوزيني أعترف؟

أنا معترفة أهو! خلصوني بقى حرام عليكو أنا تعبت!

لم تتفوه بأي كلمة أخرى.

في اليوم التالي عُرِضت على النيابة التي أمرت بتحويلها لمستشفى الأمراض العقلية لتبيان حالة قواها العقلية فلقد شكّ المحقق في قواها أثناء استجوابها..

ولما كان المحقق نعيم صديقي، فقد سألته عن آخر ما وصل إليه خاصة وأن الحكومة قد أمرت بحظر النشر في القضية لأنها تمس الأمن القومي.

أخبرني نعيم أن هذه أغرب قضية عُرِضت عليه في حياته..

فقد جاء تقرير المستشفى بأنها تعاني خللًا طرأ على عقلها.. وبتتبع قصاصات حكاياتها التي حكتها لزميلاتها في العنبر.. استخلصنا أنها بائعة تعمل باليومية لتستطيع إكمال دراستها التي توقفت ثمان سنوات بسبب ظروفها العائلية..

وتحكي فتقول: «هما اللي جننوني والله ولاد الكلب..أنا مش مجنونة هما اللي جابوني هنا ولاد الكلب..بقى تدخل عليا واحدة شحطة صدرها قد البرتقانة وتقول لي يا طنط؟ طنط ف عينك يا بنت الكلب دانتي طولي يابت!

بقيت أصبر مرة واتنين وعشرة بس بعدين الموضوع بيجنني.. مابحسش بنفسي إلا والبت مفرفرة ف إيدي.. أقوم قاطعالها لسانها الزفر دا وراميه جنبها.

ياما حاشوني وياما أصحاب دكاكين شتموني وضربوني وكنت أروح ف مكان تاني ماحدش يعرفني فيه عشان يرضوا يشغلوني..

وكل مرة أََصبر مرة واتنين وعشرة لحد ما أجيب آخري.. مانا إنسان برضه وبحس! أنا يعني عشان اشتغلت بياعة أبقى مسخرة العيال..

طنط إيه يا ولاد الكلب دانتو طولي!»

لم أتمالك نفسي من الضحك ونعيم يقرأ لي «بقى البلد مقلوبة والريس مش عارف ينام عشان العيال بيقولولها يا طنط!! طب نقولهاله ازاي دي؟ دا سيادة الوزير لو عرف هيلبِّسنا طُرح..

قاطعني نعيم الذي بدا متأثرًا وقال لي: أنت مش ملاحظ إن المتهمة دي قدنا؟

میکس شیدر

«طعام نظيف، خذ ما يكفيك» مطبوعة بخط رقيق على صندوق مُعلّق على أحد البنايات المُطِلّة على شارع أبو قير بمنطقة مصطفى كامل، وقفت أمامها بُرهة، أخرجت هاتفي وهممت أن أقوم بتصويرها، ثم تراجعت.

أكملت طريقي، ثلاث خطوات..

ثم عُدتُ له ثانية، جرّبت أن أفتحه لأرى ما يحوي، غير أنّ كلمة نظيف خرجت من مكانها وهمست في أذني «لا داعي لهتك السِتر».. تبادلنا الابتسامات - أنا والصندوق - ثم أكملت طريقي..

ريما خشيش تشدو: «هو صحيح الهوى غلّاب؟» أردد معها كلمات الأغنية، يبدو أن صوتي القبيح كان عاليا فلقد ربّت على كتفي شابٌ أسمر ذا شعرٍ أجعد يبدو كقبعةٍ تعلو رأسه، أزلت سماعة أذني ونظرت له لأفهم ما يريد فلم يزِد على أن ابتسم وأكمل طريقه.

أنا جائعة.

بعض المحال الصغيرة التي تنخفض عن مستوى الأرض. مررت عليها، لفت انتباهي أكياس من الشيبسي ذات لون قرمزي لم أكن قد رأيتها من قبل. توقفت عند أحدها.. «شيبسي ميكس شيدر»

تجاربي الأخيرة مع الأطعمة الجديدة من الشيبس هي تجارب سيئة في مجملها، غير أن الفضول كان قد تحكّم ولا يمكن دفعه.

وقفت أمام أحد المحال.. البائع عجوز ضيق الخُلُق، عيناه تشعان خوفًا غير عادي.. وقفت أمام ميكس شيدر. اخترته، أعطيته عشرة جنيهات، كانت بها شيء من البلى فرمقها بنظرة أقلقتني، ثم أعطاني الباقي، وضعته في الحقيبة ثم أكملت طريقي وواصلت ريما «ياريت أنا أقدر أختار».

نزلت من الميكروباص وكانت حقيبتي مفتوحة، حاولت أن أُلملمها، فظهر لي كيس الشيبس بطعم ميكس شيدر. أغراني بالتقاطه سأفتحه وأتذوق واحدة فقط.. على أمل أن أُصدم فلم أحب الشيدر يومًا.. فضلا عن ثقتي المفقودة في شركة الشيبسي!

ضحك عليّ أحد المارة فيبدو أنها كانت إحدى نوبات « الحوسة» التي تصيبني حينما أفعل العديد من الأشياء في وقتٍ واحد. أُسرع لكي أفرغ ما تحمله مثانتي منذ الصباح، وأحاول إغلاق الحقيبة، والإمساك بالهاتف، والابتعاد عن أكوام القمامة المتكدسة.. لم أهتم لسخريته وفتحت الشيبسي وتذوقت واحدة!

وما إن وضعتها في فمي حتى حدث ما لم أستطع إدراكه!

تبدل المكان، البرج الذي يتم الانتهاء من تشطيب واجهته تحوّل إلى بيت مكون من طوابق أربعة واجهته نوافذ من الألوميتال التي جعلها أصحابها بديلًا عن الشرفات حتى تتسع غرفة المعيشة أكثر.. فتاة في العاشرة أصبحتُ.. أسير بجديلتيّ الطويلتين تهتزان وترتطمان بمؤخر ظهري وأنا ذاهبة للعم أبو سامي بعد الغداء أشتري شيبسًا «ليز» بطعم الجبنة الفرنسية الذي لم يعد موجودًا الآن.

اختلاس

لكنّها كانت دميمة الوجه، قبيحة الطبع، قذرة الثياب..

لا يُمكن لأمٍ أن تكون بهذه الصفات..

لديها خمسون طفلاً، جميعهم يقولون «ماما».. كيف ومتى أنجبتهم؟ لا أجدُ جواباً..

كانت أحنّ قاسية..

إن شُجّت رأس أحدنا أثناء نوبة عمله، كانت تجلس على كرسيها المتهالك، تنفث دخان سيجارتها وتهيل على رأسه التراب ثم تضمده بقميصه الذي لو نطق لانهال عليها بألوانٍ من السُباب، لم تدخل بعد قاموسها.

في المدرسة المقابلة للخرابة، يتعلّم طفلٌ قال أخي إبريز أنني لو استحممت وأزلت عن جسدي «الجلَخ» العالق به، لحَسِبَ الناس أنني هو.

كنا نأتي كل يوم لمشاهدته وهو يدخل من المدرسة..

كانت لديه أمٌ جميلة، تُقبِّله كل يوم وتحتضنه قبل أن يدخل المدرسة..

لم تقبلني أمي يوما.. حتى عندما أُصِبتُ بالجُدري.. حبستني في غرفة العقاب وأدخلت لي ما بقي عندهم من طعام.

يقول إبريز أنها لو لم تكن تُحبني لأطلقت عليّ الرصاص كما تفعل دائما بمن يصيبهم مرضٍ مُعدٍ.

كثيراً ما تمنيّتُ أن تكون لي أمٌّ مثل أمِ هذا الولد الذي أشبهه.

في هذا اليوم اقتربتُ كثيراً من هذا الولد وأمه، وبغير وعيٍ مني احتضنتُها بسرعة وهربت.

ولكن قدماي لم تسعفاني في الهرب من صراخها المتواصل:«لص! لص! أمسكوه.. أمسكوا هذا القذر.. لا تدعوه يهرب».

لم أعلم لماذا يتهمني هؤلاء الناس باللصوصية.. أنا لست سوى بائع للفُل.

أمسكني رجلٌ ضخم الجثة.. انهال عليّ ضرباً حتى تورمت وجنتاي..

وصلت المرأة وقالت من بين لهاثها:«اعترف يا لص يا صغير! ماذا سرقت في غفلةٍ مني»

قلت من بين دموعي اللي انهمرت لأول مرة منذ عرفت معنى البكاء، لم تكُن المرة الأولى التي يضربني فيها هؤلاء، لماذا بكيت كل هذا البكاء؟ لا أعلم..

قلت لها:«ابحثي في أغراضك إن وجدتِ ما سُرِق فافعلي ما تُريدين، وإن لم تجدي شيئاً فعناقٌ آخر يكفي لرد الظلم».

فتشت في حقيبتها، كثيراً.. ثم قالت وهي تصرخ «الساعة! ساعتي الجديدة يا لص! يا مجرم!».

أقسم أنني لم أسرِق منها شيئاً، سوى عناق عابر

الموت

فستانٌ مزدانٌ بزهرياتٍ سوداء.. مُعلّقٌ على مِنصةٍ عالية..

مثيرةٌ للخوفِ والرهبة والفضول أيضًا!

تقبُعُ فوقَهُ لافتةٌ بالية، كتب عليها:

«فستانٌ لا يصلُحُ للارتداء إلا مرة

ملحوظة:

إن جرّبت ارتداءه لن تستطيع إزالته من جسدِك»

فستانٌ جميلٌ حقًا

ولكن! ماذا لو لم يكن يناسبني؟

صعدت السلالم المتكسرة، ذات الحواف الحادة

سألت البائع، وكان عجوزًا يتكئ على عصاه، ويبتسم ابتسامة مُحيّرة.. ليست مُطَمئِنة، ولكنها ليست مُخيفةً أيضًا.. بالمكانِ شيءٌ غامض.. يدفعُكَ لاستكشافه، والعدول عن تلك الرغبة ف نفس الوقت.. سألته:

- هل من مجالٍ لتجريب الفستان الأسود.. فقط تجربة؟

- هل تستطيعين القراءة؟

- نعم، ولكنني قلقةٌ بعض الشيء.

- كلكم كذلك.. جبناء!

- عفوًا؟

- جبناء.. ألم تسمعي؟

- لستُ خائفة أنا فقط أخشى أن..

- هاهاهاها لستِ خائفة وتخشين؟

إن اعترفتِ بخوفِك ستتغلّبين عليه.

- هل من الممكن أن تترُكني أُتمِّم جُملتي!!

أنا أخشى ألا يكون مناسبًا لي فقط..

ماذا سأفعل إن كان واسعًا قليلًا؟

أو ضيقًا بالكاد أستطيع ارتداؤه!

ماذا لو كان مناسبًا لمقاسي ولكنه يجعلني قبيحة!

هل سأعيش هكذا؟ غير معقول!

هل أجازف بكل هذا، فقط لئلا تنعتني بالجُبن!

- المجازفة هي الحياة.

- بئست الحياة! لستُ على استعدادٍ لفقدها.

- إذن، فمستعدةٌ لماذا؟

- للاشيء.

حسنًا إذًا لا يُمكنني تجريبه.. كان من الأفضل أن تُخبرني بهذا بدلاً من الثرثرة الفارغة!

- حسنًا.. كان يُمكِنُكِ أن تقرأي اللافتة جيدًا..

ساعتَها لم تكوني بحاجةٍ إلى هذه الثرثرة الفارغة.

نهود

أفقت من شرودي على مشهد ظل عالقا في ذاكرتي لوقت مللت حسابه، تخفي أختي صدرها وتدخله في حمالته.. ترفع صغيرها لكتفها، تخطو خارج الغرفة محدقة بي بذهول..

بعد برهة تأتيني أمي بوجه مكفهر.. تسألني بتوتر وإن كانت تحاول الحفاظ على هدوئها: « دي أختك يا نجس. بتشتهي أختك يالل ربنا عمره ما..»

لم أسمع بقية ما قالته فلم أكن أنظر لها أصلا.. نعم أتت أختي لتجلس أمامي، هدهدت صغيرها ووضعته في حجرها، فكت أزرار قميصها لتبدأ في إرضاعه.. ألقمته ثديها ورحت أنا لعالم خيالي..

كنت صغيرا، حوالي العشر سنوات، أو أقل حينما بدأت تغزوني تلك الأحلام الغريبة..

أجلس لمشاهدة التلفاز، فتناديني الممثلة الأثيرة لدي.. أدخل لها عبر التلفاز أقوم بنزع قميصها عنها وأتأمل نهداها.. كانت تكمل مشاهدها عارية النهدين، لا تعبأ بوجودي كأنني شبح لا تراه. أحاول أن اسألها ماذا تريد ولماذا نادتني.. لا ترد سوى بمزيد من التجاهل..

لم تكن هلوسات مراهقة فلم أكن قد بلغتها بعد.. ولم أشعر حتى بلذة ما..

فقط ما كان يشغلني، كيف استطعت الدخول إليها عبر جهاز التلفاز.. كيف استسلمت لي في فك ملابسها، وكيف أكملت ما كانت تفعله شبه عارية ولم تعر وجودي أي انتباه!

في طفولتي، كانت العمات والخالات وزوجات الأعمام والأخوال يرضعن صغارهن في وجودي.. وكأنني شبح غير مرأي، تماما كما فعلت الممثلة في الحلم..

كنت أختلس النظرات لنهودهن.. لم تكن يشبه أحدهم الآخر.

فزوجة عمي الشقراء ينتهى نهدها ببقعة وردية يلتقطها صغيرها ويمتصها..

وعماتي السمراوات كانت تلك البقعة بلون القهوة التي يشربها أبي..

ظلت تحيرني تلك الاختلافات التي لم يكن يستوعبها عقلي الصغير آنذاك..

ظللت أتلصص على فتيات العائلة اليافعات.

اكتشفت أن هناك ثمة صلة بين لون شفاه الفتاة ولون تلك البقعة التي لم أكن أعرف لها مسمى.

فالفتاة ذات الشفاه الداكنة ينتهي صدرها نهاية داكنة..

والبنت ذات الشفاه الوردية ينتهي صدرها بنفس اللون.

استفقت لأخبر أمي أنني لم أنظر لها أصلا!

وجدت الدموع تترقرق في عينيها وهي تقول: «هتفضل طول عمرك نجس.. حسبي الله ونعم الوكيل فيك.. ربنا يوريني فيك يوم» وعادت أدراجها.

حاولت أن ألحق بها لأشرح لها الأمر، إلا أنها صفقت الباب بقوة.

قلب يحوي عالما تاه عنه

قلبي الذي يشبه بنايةً عتيقةً بُنيت على الطراز الإنجليزي بناية يزيد عمرها عن المائة عام، أي ما يزيد على ضعف عمري، منظرٌ بهيّ.. غُرَفٌ واسعةٌ تسعُ الكثير من الخيبات، وتخفيها جيدًا تحت الأسِرّة النحاسية..

أربعة نوافذ تطل إحداها على البحر،

النافذة المطلة على البحر تحوي خلفها بقايا حكاياتٍ لن تُروى،

حكاياتٌ كثيرة، تصعد إلى رأسي كل ليلةٍ ويعبثُ أبطالها بأحلامي، أستقيظ مُحاوِلةً استجماع خيوط القصة غير أنني لا أستطيع تذكرها، وهذا يسبب لهم الغضب فيأتونني في الليلة التالية لائمين.. أحاول استجماع القصص لأرويها لصديقي الذي لا يمل حكاياتي، صحيح لم أعد أتذكّر ملامحه، لكنه لم يتخلّ عني بالرغم من ذلك..

أستقيظ كل يومٍ وبي خوفٌ من أن يتركني كما فعل جميع الرفاق، أتحسس طريقي وصولًا إليه أمرر أصابعي على السبع وردات البارزات المنحوتات على أرجله، الطاووس الواقف على قمته، والزرّيْن المنغرسين في منتصف قاعدته.

كان يسمع حَكَاياي دون كللٍ، ويخبرني كل مرةٍ أن كل هذا إلى زوال، ونحن.. نحن فقط الذين سنبقى.

كانت في نبرته طمأنينة تسري كرعشةٍ في جسدي فتُنسيني حكاية اليوم.

على مدى خمسة وثلاثين عامًا كان تجسيدًا حيًّا لمعنى الصحبة الطيبة.

اليوم استيقظت على رائحة دخان تزكم أنفي، هرولت إلى صديقي أولا للاطمئنان عليه، ارتطمت بباب الغرفة فقد نسيت أنني أغلقته ليلة الأمس، حاولت فتح الباب لكنه لم يُفتح، صرختُ فيه فسمعت دويّ ارتطامه بالأرض.. علِقت قدمي بالفجوة الموجودة في منتصفه، فلقد انكسر زجاج شرّاعته قبل عشر سنوات ولم أُبدِّله..

بصعوبة استخلصت قدمي، وهرولت للكرسي، رائحة الدخان لم تنقطع، عيناي تدمعان بشدة..

لا أثر للكرسي في جميع أنحاء الغرفة، رائحة الدخان تتزايد ولا أثر حتى لبقايا احتراق فأين ذهب؟ أين ذهب وتركني وحيدةً حد الاحتراق! أين وعده الذي وعد؟ كيف نسيه بعد كل هذه السنوات!

اشتداد رائحة الدخان أجبرني على تناسي الكرسي ومحاولة معرفة مصدره!

ناديت بأعلى صوتي على جارتي مدام صافيناز..

ناديت كثيرًا، ولا مجيب. حتى ظننت أن النار اشتعلت في جسدي، رائحة الدخان ازدادت حتى منعت عني نَفَسي، شعرت بدوارٍ شديد.

جاءني صوت لم يكن صوت صافيناز - على ما أتذكر - يصرخ: «ماذا بـ...»

وانقطع فجأة!

صرخت: «يبدو أن هناك حريقًا لا أعلم مصدره»

قالت الصوت الذي لم أعرف لمن يكون: «قـ - لـ - بـُ - كِ»

- نعم. نعم، نعم قلبي يؤلمني.. لا بد أنه تأثير هذا الدخان الكثيف، فأنا لا أستطيع حتى أن أتنفس بانتظام.. هل لك أن تساعدني في العثور على ما يحترق ونطفئه قبل أن يُقضَى عليّ؟

- لا سيدتي، قلبك..

قلبك - هو - الذي - يحترق!

- ماذا؟!! قــ.. قلبي؟ أ..أنا؟؟!

'ما بك يا قلبُ؟ هل أحرقتك الشجون؟'

صديقي القمر

كنا نتناقش في ميزانية الشهر، التي لم تفلح الخطط والمحاولات والتكتيكات والمؤامرات التي بدأت أولاها منذ ما يزيد على العشر سنوات، في إيصالها لآخر الشهر بسلام، أو على الأقل تجنيبنا «العراك الشهري» المعتاد الذي ينتهي دوما بلعن الزواج ومن يتمناه، أو يقع في محيطه أحد يرغبه.

دخل مازن من الشرفة مهرولا يتساءل:

- بابا.. ليه القمر بيمشي معايا أنا بس دايما؟

* روح اسأل أمك أنا مش فايقلك دلوقت.

تدخلت زوجتي محتدة

- يووه! يا راجل قولتلك ١٠٠ مرة ما تشخطش ف الواد كدا! كلِّمه بالراحة هتعقدهولي وأنا ماحيلتيش غيره!

- نقطينا بسكاتك أنا مش فايقلكوا، سيبيني أشوف الهم الاسود اللي ورايا دا.. الله يخربيت الجواز عاللي بيتجوزوا

- دي ما بقتش عيشة دي والله! هو انت أول واحد تتجوز ولا تصرف على بيتك!

- قومي خدي ابنك وفِزّي من قدامي بدل عليا الطلاق بالتلاتة ما أبيّتك فيها!

تصمت، تحتضن الصغير وتذهب به لغرفته وتهمس له بكلام لم أتبينه.

بعد قليل يأتيني صوتهما من الداخل:

- ماما، هو ليه بابا بيزعق دايما كدا؟

- معلش يا حبيبي تعبان شوية.

يسود الصمت ثانية..

أسمعها تقول:

- آه القمر.. بيمشي معاك علشان يونسك بالليل.

- يعني ايه يونسك يا ماما؟

- يعني يخليك مبسوط ومش خايف، مش انت بتنبسط لما يمشي معاك؟

- آه ببقى مبسوط.. بس ليه بيمشي معايا أنا لوحدي؟

- علشان هو بيحب الأولاد المؤدبين اللي بيسمعوا كلام ماما ومش بيعلوا صوتهم.

في تلك اللحظة تذكرت والدتي..

وتذكرتني حينما كنت صغيرا.. أترك يدها وأجري وراء القمر، ولا أستطيع اللحاق به.. أقف فيقف.. أسير فيسير..أقف ثانية فيقف، إلى أن أصل إلى وجهتي..

كنت سعيدا بالقمر كمازن، لكنني لم أتساءل يوما لماذا يرافقني القمر..

أتذكر فقط صراخ أمي: «يا واد امشي يا ولا! هنتأخر على أبوك اللي مستنينا دا».

وما إن نصل إلى البيت حتى يصم أذناي صوت أبي المخيف وهو يسبني وأمي بغليظ القول.

أهرول إلى غرفتي.. أفتح النافذة وأنظر لصديقي القمر..

أجده يبتسم لي كما لم يبتسم لي أحد من قبل.

فلسفة البطاطس

بعد تردُّدٍ طال.. ذهبتُ إلى طبيبٍ نفسيّ أشكوه ما ألمّ بروحي ومزّقها.

بعدما انتهيت من حكيي.. نظر إليّ الطبيب نظرةً مطولة بعينٍ جامدة حتى حسبته فارق الحياة.. وفجأة هبّ واقفاً وقال:

- قل لي يا رضا.. هل تحب البطاطس؟

كان سؤالاً مُباغتاً ومُربِكاً وأثار في عقلي ما سمعته عن خبل الأطباء النفسيين.. لا أُخفيك، بدأ الخوف يتملكني فقررت أن أجاريه حتى أستطيع فكاكاً.. فقلت: ومن لا يُحبّها؟

هز رأسه ثم قال: عظيم عظيم.. مهروسة أم مقلية؟

فقلت وقد تبددت شكوكي وحل محلّها يقين. تام: مقلية.

جالَ بعينيهِ في اللا شيء ثم جلس أمامي مباشرةً واضعاً يديه على ركبتيّ، ناظراً مباشرةً في عيني وقال: إذا لمَ لا تتخذها قدوة؟

فغرتُ فاهي..غير أنه استطرد بسرعةٍ لم تدع لي مجالاً لمجرد التفكير وقال:

هل تعتقد أن أقصى أحلام البطاطس أن ينتهي بها المطاف إلى أصابع مقليةٍ.. فقط لإسعادك؟ بالقطع لا .. ومع ذلك انظر إلى دورة حياتها..

في البدء صلبة.. تتحمل القذف والحمل والضرب. الحرارة والرطوبة.. الوحل والمطر..

وحينما تقع بين يديك وتقرر أنت نهايتها ولا تستطيع لذلك مهرباً تجدها مُحافظةً على صلابتها حتى مع التقشير والتقطيع.. تظلّ صلبةً حتى لحظة هلاكها في الزيت..

وحينما تظن أن النهاية قد آنت ولا مجال لتغيير ذلك.. تجدها قدد استحالت من صلابتها إلى ليونةٍ هي للهشاشةِ أقرب.. ما إن تلمسها حتى تتكسر.

لكن سُرعان ما تُلملِم جراحها وتُقرّر أن: لا! لا مجال للانهزام.. فتستعيد صلابتها مرةً أخرى ليست صلابةً عادية بل صلابة مذهبة تبعث النشوى في العيون

. وتحتفظ بداخلها بألمها الذي لن يتجاوز هذا الداخل..

وحتى عندما تكتشف أنت هذا الألم الهش فإنه سيساعدك على الاستمتاع..ولن يؤذيك بحال.. وسوف..

وهنا كنت قد وصلت لباب الغرفة الذي تسللت إليه بينما كان الطبيب مستغرقاً في تأملاته

في الأرض خليفة

بدأنا ارتشاف قهوتنا الصباحية.. سألتها: «أخبريني، هل ترين وجهًا للشبه بين الإله، الكاتب والطباخ؟»

نظرت إلي شذرًا، وأشاحت بوجهها عني.

تحولت إليها ثانية وكررت السؤال..

انفجَرَت في وجهي وقالت صارخةً يتناثر لُعابها في وجهي: « ألن تكفي عن جنانك هذا؟

أتشبهين الله بمخلوقات؟ ألم يمر بسمعك ولو على سبيل الصدفة أنه يقول عن نفسه: «ليس كمثلِهِ شيء؟»

اسمعي، ليس لدي وقت لهرطقتك.. دعيني أُكمِل هذه القهوة فلقد تأخرت على عملي.

ضحكت رغمًا عني، فساعدت ضحكتي على استفزازها وقلت لها، بلى سمعت.. ولكن في المقابل ألم تسمعي أنت أيتها المؤمنة أنه يقول: «إني جاعل في الأرض خليفة»؟

قالت وهي ترفع إحدى حاجبيها، وتعقد يديها حول صدرها: بلى.

– ومن هو الخليفة برأيك؟

– إن سألت ذلك الحمار الذي يقبع أمامك سيجيبك بأنه الإنسان.. ونظرت إليّ بما يعني: «ألن تكفي عن بلاهتك»؟

حاولت منع ضحكتي حتى لا تزيد ثورتها، فلم يكُن ثمة حمارٍ أمامنا. لكنها أبت إلا الخروج.

وكما توقعت فقد أثارتها الضحكة أكثر وهمت بالقيام.. منعتها وقلت بلهجة معتذرة: حسنا حسنا اجلسي، وأعدك أن أحاول ألا أضحك ثانية.

ولكيلا أغضبك أكثر لن أطرح عليك المزيد من الأسئلة، فقط سأكتفي بطرح ما يراودني. وأرجو منك فقط ألا تثقبيني بنظرات السأم - كعادتك - فهي ترهبني.

قالت بلهجة ساخرة: «استمري يا فيلسوفة الغبرة»

منعت الضحكة هذه المرة وقلت: حسنا حسنا.. يخبرنا الله أنه جعل الإنسان خليفة.

يخلف الله في أرضه.. ولكن من هو الخليفة؟

الخليفة اسم مشتق من فعل الاستخلاف وهو أن يجعل الرجل مكانه، ليُتِّم عمله.

أي أن الله أوجد الإنسان في الأرض كي يتم ما بدأه..

نظرت إليها مستطلعة فوجدتها تنظر باهتمام - وذاك ما لم أعتده، وشجعني في الوقت ذاته على المضي قدما في الشرح - .

قلت: والذي بدأه الله هو «الخلق».. إذا فمن مهام ووظائف هذا الخليفة هو الخلق..

لذلك أعطاه الله القدرة على الخلق..

من الطين، ذاك الشيء الحقير، خلق الله إنسانا حسن المظهر بهي الطلعة..

الأمر ذاته يفعله كلا من الطباخ والكاتب. فمن اللاشيء يخلقان ما يجعلنا نقف أمامه مبهوري الأنفاس

الأول يستخدم كلاما مبهما، يجعل منه آية فنية، يخلق بين طيات صفحاته عوالما كاملة.. يتحكم بمجريات أحداثها، يعلم ماضيها ويتنبأ بمستقبلها، بل ويتحكم في مصائرها أيضا.

والثاني يستخدم موادا أولية تكاد تتطابق ليخلق منها الأشياء المختلفة في المذاق، واللون والرائحة.. فقط بإضافة بعض من سحره الإلهي.. تذكرني تلك الحالة بما يقوله الله عن قدرته في الخلق: «يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل»

فكما يخرج لنا الله من نفس الأرض ونفس الماء ألوانا وأشكالا من الفواكه والخضروات..

كذا يفعل الطباخ يخلق لنا من مواد متشابهة أكلات يسيل لها اللعاب.

«وهكذا ترين يا عزيزتي أن هناك وجهًا للشبه بين الله والطباخ والكاتب» قلت جملتي هذه وأشرت إليها بحركة مسرحية أنني أنهيت العرض، ويبدو أنني أنهكت في شرح فكرتي.

فما إن انتهيت من كلامي ونظرت لها أستطلع ردة فعلها، حتى وجدتها تغط في نوم عميق.. لا أعلم متى غرقت فيه لهذا الحد!

كمّاشة..

كان قلق ما قبل النوم يزداد معها باضطرادٍ حتى تحوّل لأرقٍ شبه دائم..

يتردد صدى كلماته في عقلها حد الألم: «ولكن علاقتنا لا يمكن أن يُكتب لها النجاح ما دُمتِ تُصرّين على العيش على رف النسخ الممسوخة، ابحثي في داخلك عن نقاط تفردك، عن قواكِ الكامنة، واستغليها في تطوير شخصيتك.. حينها فقط، ستجدين الشخص المميز، والملائم لكِ تمامًا»

جلست شاردة على مائدة الغداء، تلوك قطعة الدجاج وتُفكِّر في كلامه.. علقت «نسيرة» بين ضروسها التي فشل اظفرها في انتشالها..

في تلك اللحظة ومضت في رأسها فكرة!

سألت والدتها:

- ماما، بتعملي ايه لما الأكل يتحشر بين سنانك؟
- بشيلها يا بنتي، ما بسيبهاش مستخبية جوا
- أيوة أنا قصدي بتشيليها ازاي؟
- في اختراع جديد في السوق اسمه «خِلّة» للأسنان، لسه ماسمعتيش عنه ولا إيه؟
- طب عمرك جربتي تخرّجيها بلسانك؟
- لا حول ولا قوة إلا بالله.. كملي أكلك يا ضنايا وانت ساكتة.

اغتاظت ندى من أمها، وكررت السؤال على والدها.. ولم يختلف رده كثيرًا عن رد الأم

ذهبت إلى صديقاتها الواحدة تلو الأخرى تسألها ذات السؤال باهتمام بالغ يثير الضحك من فرط سذاجته.

سألت كل من تعرف ولم تجد موهوبٍ غيرها بموهبتها الفريدة!

بعد أسبوعٍ من البحث المُضنِ، وفي نهاية اليوم.. وضعت رأسها على وسادتها.. جاءها قلق النوم.. أمسكت هاتفها وكتبت في رسالة:

«على فكرة، بعرف أعمل كمّاشة بلساني وسناني تخرّج الأكل اللي بيتحشر بينهم، ومافيش أي حد غيري بيعرف يعمل كدا؟ ممكن نتكلم دلوقتي؟»

ثم أغلقت هاتفها وغطت في نومٍ عميق

انطوائي شوية

جلسنا على الإطار الرخامي الذي توسطته نخلة اصفرت فروعها ومالت إلى جهة اليسار.. تركنا مسعد وجلس على كرسي الاستراحة، وحده، يُطأطئ رأسه وكأنما يعتريه الندم، هو في الحقيقة ممسكٌ بهاتفه يفعل شيئًا ما..

بين الحين والآخر يختلس النظر إلى الفتاة الجالسة بجواره، كانت ترتدي حذاءً أحمرًا، جوربًا أصفرًا يظهر جزء منه خارج بنطالها البني، وجاكت أخضر لم يُغلق سحّابه جيدا.. ينتهي هذا الكرنفال بغطاء رأسٍ لا تستطيع أن تحصي ألوانه.

كانت الفتاة الأكثر فوضوية من بين فتيات الجامعة اللائي رأيتهن على مدار سنوات دراستنا الثلاث.. تُمسِكُ في يدها كتابًا أسندته على حقيبتها التي احتضنتها وانغمست فيه حتى لكأنها صارت في عالمٍ آخر.

مرت نصف ساعة ولم ترفع عينيها عن كتابها، لا تعبأ بصخب الجامعة حولها، قامت فتيات وجلست فتيات وكانت هي الثابت الوحيد على هذا المقعد، شيء ما فيها يجذبُ سعدًا، أثار فضولنا انتباهه!

سعد صامت تمامًا! وضع هاتفه في جيبه وتفرغ لتأمل هذه الفتاة الغريبة، لقد تحوّل إليها، ثنى ركبتيه وشبكّهما وكأنما يستعد للأكل.. أسند يديه إلى ركبتيه ووضع وجهه بين كفيه وغام معها في عالمها.. لم تنتبه له الفتاة على أي حال.

مللنا من الجلوس هكذا إلا سعد.. باغته خالد مُشاكسًا:

- سعد.. يا سعد!

لم ينتبه له فصرخ فيه:

- يا سعد! قاعد لوحدك ليه يابني؟

- معلش أصلي انطوائي شوية

قالها ولم يحرِّك عينيه عن الفتاة، ولا نحن أيضًا!

علا شبح ابتسامة على وجه الفتاة، ضحكةً حاولت أن تمنعها فلم تستطع، ضحكةً جعلت سعدًا يقفز واقفًا وسلبت عقلي.. لو لم يهتم بها سعد في بادئ الأمر لكنت ذهبت فورًا للحديث معها، لكن أخلاق الصداقة تمنعني.

وقف سعد مباشرةً أمامها، وقال:

- أنا سعد، انطوائي شويتين بس هبقى كويس.

ضحكت فانخلع قلبه - كما حكى لي بعد ذلك عشرات المرات - ثم عادت إلى كتابها وتظاهرت بأنها لا تراه، وضع يده على الصفحة التي تقرأها ثم قال:

- طيب ممكن أعرف بتقري ايه؟

أبعدت يديه وقالت:

- هتعرف يعني لو قلت لك؟

- آه

- ما يبانش عليك، لكن على أي حال بقرأ رواية «حقيقة الخديعة» تعرفها؟

- حد الله بيني وبينها.

ضحكت ثانيةً فأوقعتني في غرامها، من كان ليُصدِّق أن هذه الفتاة التي تثير رؤيتها السخرية ستستلب قلبينا بضحكة!

«قلبِك مال؟»، قالها سعد وقد تحوّل صوته الأجش لأرق صوت، لم يكُن يقولها ساخرًا، بل كان صوتًا يملؤه الرجاء.

- عفوًا؟

- آسف، عمرو دياب بيقول: «ضحكت يعني قلبها مال».

احمرّت وجنتاها، وأخذت تقوم بقفل وفتح قلمها بعصبية، ولم تستطع التغلب على توتر قدميها وقالت: «مش ضروري طبعا، مش يمكن تكون سمعت حاجة لطيفة؟»

يا إلهي! لا أصدق ما تراه عيناي! ألا زالت في مدينتنا فتاة يحمرُّ وجهها خجلا!

عاد سعد إلى مشاكسته:

- يعني... تقصدي تقولي إن أنا شخص لطيف؟

جمدت تعابير وجهها فلم أستطع – ولم يستطع – فهم معنى ذلك، هل تخطى حده؟ لم تبدُ على وجهها سيماء الامتعاض، ولا الاستحسان كذلك!

غابت داخل صفحات كتابها مرة أخرى، ولم يفلح في انتزاع كلمة منها وكأن قد أصابها الصمم.

عدنا بخيبتي أمل، لكن عزمنا على العودة إليها في الغد.

ذهبنا إلى الجامعة للمرة الأولى منذ الثامنة صباحًا، للمرة الأولى التي نُحب فيها الجامعة، بحثنا عنها بين جميع الفتيات، وفي جميع الأقسام ولا أثر لها!

انتظرناها على المقعد التي كانت تجلس عليه طوال اليوم حتى لم يكن في باحة الجامعة غيرنا، ولم تظهر.

في اليوم التالي اشترى سعدًا رواية «حقيقة الخديعة» لدان براون، وكانت تلك المرة الأولى التي يشتري فيها كتابًا، فقد كان يحملُ يقينًا أنه سيجد به فتاته.

على الرغم من عدد صفحات الرواية التي تتخطى الخمسمئة، إلا أن سعدًا أنهاها في يومٍ واحد.

واليوم، يكون قد أكمل عشر سنواتٍ على هذا الحال؛ يقضي نهاره في البحث عنها وليله في قراءة الرواية.

على متن الرحلة التالية

عدتُ من عملي متأخرًا.. حوالَي الرابعة فجرًا.

استقبلتني زوجتي بدلالٍ لم أعهده، لم تكن بي رغبة بها.. رغبتي في النومِ كانت أقوى.. فَهِمت ذلك من نظرتي على ما يبدو..

قلت لها: «سعاد سامحيني، لست بالحال الأفضل اليوم»

ابتسمت وقالت: «ولا أنا»..

احتضنتها، قبـلتُ جبينها.. ثم ارتميت على السرير.

لم تنم، جلست وأطرقت رأسها..

آه، هذا الدلال كان الهدوء الذي يسبق العاصفة..

رأسي يكاد ينفجر، ولا طاقة لي لخناقٍ جديد..

انتظرتها لتتكلم، ولم تفعل.

لم أعهد منها هذا الهدوء.. فهي دائمًا ثرثارة ولا تمل من الكلام عن تفاصيلٍ لا تعنيني حتى أغيب في النوم.

سعاد؟

سعاد؟

ناديتها ولم يبدُ عليها أنها سمعتني، رأيتُ دمعةً تتسلل خدّها، لم تنتبه لها.

لكزت خصرها: «سعاد، ماذا بكِ؟»

– لا شيء، صحيح هل تعشيت؟

– سعاد! ماذا بكِ أخبريني! أنتِ تعلمين أنني لم أتناول العشاء منذ ما يقارب السنة.

– قلت لك لا شيء!

وانفجرت في البكاء.

حاولت تهدئتها لتخبرني ما بها، ولكن كانت محاولاتي سببًا في زيادة نشيجها.

– سعاد، فقط أخبريني ماذا بكِ، ما أردت إلا الاطمئنان.. لن نتناقش حتى فيما يؤلمك لهذا الحد.. أنت تعلمين أنني سأغفو ساعتين وأذهب للمدرسة وبعدها سأحاول إقناع المعلم ذكي بأن يستأجرني سائقًا لأحد ميكرو باصاته.. ثلاثة عشر يومًا يُخبرني أنه لا يستطيع مساعدتي، سأذهب له اليوم للمرة الأخيرة.. وإن لم يرضَ سأذهب لمحل الأحذية على أول الشارع، رأيتُ ملصقًا ينبيء بحاجتهم لعاملٍ في وردية ليلية.

نظرت إليّ ولم تتكلم.

– سعاد! أخبريني، أأأأ.. أأنا سبب غضبك؟

هزت رأسها بإشارةٍ لا تفيد معنى واضحًا.

احتضنتها، وأخبرتها بأنني أحبها ولا أستطيع تحمّل دموعها.

لم تفلح هذه المحاولة أيضًا في جعلها تتكلم.

فقط تبكي وتبكي..

رنّ هاتفي.. المعلم ذكي!!

الساعة السابعة؟!!

متى غرقت في النوم؟ لا أعلم.

أخبرني المعلم ذكي أن الأسطى عمر سافر إلى بلدته وأنني أستطيع العمل بدءًا من ظهر اليوم.

- سعاد!!

أين ذهبت؟

ترى ما الذي يؤلمها لهذا الحد!

آه حبيبتي أنتِ تتحمّلين كثيرًا فوق طاقتك.

لو تخبريني فقط بالذي يضيق به قلبك.. ألم نتعاهد أن نتشارك الألم سويّا!

آه يا سعاد.. كم أحبك حتى في أوقات غضبك هذه.

لا تتضايقي حبيبتي سأعمل عملاً إضافيًا وسنتجاوز كل هذا.

- سعاد؟ سعاد؟

ناديتها كثيرًا ولا جواب.

لا! لحظة.

ها هو الجواب.

أرجو ألا تكوني قد ذهبتِ إلى والدتك فأنت تعلمين أن هذا الأمر يُغضِبُني.. ولكن لا تقلقي سأسامحكِ إن فعلتها.

فتحت الورقة وقرأت:

«الحبيب ياسر..

حينما تقع هذه الورقة بين يديك أكون قد ذهبتُ إلى رحمة الله.. هو أرحم بي من كل هذا الشر في الدنيا،

سأخبره أن يساعدك على الخروج من هذا البلد، كنت أتمنى أن نخرج منها سويّا، لكن كانت إرادة الله غير ذلك

أعلم وتعلم ويعلم الله أنني لم أتكاسل عن أخذ الحبوب، ولكن شاء الله أن يُلقي نطفةً منكَ في رحمي.

لم أشأ لهذا الوليد أن يرى ما عانينا.. وبطبيعة الحال لن أسامح نفسي إن تخلّصت منه، ولن أستطيع.

كما أنني أعلم أنك ستنزعج وتحاول أن تخفي انزعاجك حتى لا تُشعرني باللوم..

عزائي أنني ذهبت وبداخلي بضعة منك.

سننتظرك.. لا تتأخر علينا

أحبك كثيرًا»

لماذا تركتِني يا سعاد!

لقد عشتُ عمري أتشوّقُ لفرحةٍ في عينيك عندما تأتي هذه اللحظة.

لا تخافي، لن تنتظري كثيرًا.. أنا قادمٌ إليكِ.

رحلة إلى الجندي المجهول

وفجأة اختفت العربة التي كنت أستقلها، ووجدتني في منتصف طريقٍ متقاطع، لا وجود لأية عربات تسير فيه، ولا مارة يمكن سؤالهم حتى.

مرّت عربة خضراء صغيرة لا تتسع لرأس صاحبها الذي قال بصوتٍ عالٍ وكأنه يصرخ «أنا أهو رايح المنشية» ودخل بعربته بيتًا يوصِل للطريق السريع - كما قال - .

كغريبٍ ضال لم أجد أمامي حلاً سوى اقتفاء أثره، ولكن لم يكن ثمة أثرٍ وراءه.

صعدت درج البيت الذي يبدو قديمًا من الخارج أما من الداخل فلا يسكنه أحد ولم يكتمل بناء طوابقه بعد.

ظللت أصعد ذلك الدرج الضيق المعتم. وأنا أتردد بين إكمال الطريق والعودة، وأحاول التوصل إلى كيفية مرور العربة من هنا.

في الطابق الذي لم أحسب رقمه لشدة انشغالي بالطريق، وجدت طفلة في عامها الرابع على ما يبدو تقوم بتقشير «محارة السلِّم» للطابق الذي يعلو شقتهم. حاولت إبعادها عنه.. ولكنها على قدر جمال ملامحها فأفعالها للقبح مثال.

«دي طريّة لسه مانشفتش يابنتي.. سيبيها دا الناس تعبانين فيها» وما كدت أتم الجملة حتى ظهرت سيدة ترتدي غطاءً للرأس تربطه حول عنقها

بلا مبالاة، جاء صوتها زلزالا يهز درجات السلم تحت قدمي، وأمرت الفتاة أن ترجع إلى أمها وأن تكف عما تفعل وإلا قطعت يدها.

كان الطابق الأخير، وكانت تجلس على سطح البناية كي تستطيع أن ترقب البنايتين معًا كما قالت.

سألتها عن الطريق.. فضحكت حتى أرعبتني ولم تتكلم، فعدت أدراجي حاملة الخيبة التي أثقلت ظهري.

كيف نزلت هذه السلالم المرعبة وكيف وصلت إلى شارع سعد زغلول؟ لا أمتلك إجابة ترضيني فالأمور هذه الليلة تسير بطريقة تُشعِل في رأسي الأسئلة التي لا يبدو لها نهاية.

على جانبي الطريق كان هناك مقهى وحيد يشغل الطريق بحارتيه ويقف عماله المرتدين ملابسًا بيضاء، وشريطة سوداء مربوطة حول خصورهم، يلاحقون المارة – الذين لم يكونوا موجودين – واتجهت أعينهم جميعًا نحوي بطريقةٍ جعلتني أسلك شارعًا جانبيًا دون إرادة مني.

حالما ابتعدت عن أعينهم وجدت زحامًا شديدًا في شارع ضيقٍ يعلو صخبه..

الكثير من الحُفر على الجانب الأيمن من الطريق وحولها الكثير والكثير من الأخشاب – كانت تشبه تلك التي أراها في أحلامي دائما بل أظنها هي – مع العمال الذين تعلو جلبتهم كلما خطوت خطوة للداخل.. ثم وصلت إلى

نهاية ما ظننته في البدايةِ معبرا لكنه كان حارة سد.. يقف أمامي رجل ابتلت ملابسه عن آخرها يفصل بيننا بئر عميق، أصابتني بالدوار محاولة النظر إليه وسألني بلهجة لا تدع مجالا للتفكير

- عاوزةماية قد ايه؟

لكنني لم أكن أحتاج لماءٍ أنا فقط أريد عبور الطريق، نظرت حولي فوجدت الكثير من السيدات اللائي يحملن الزِلع ويسرن بها حانقات، تتساقط قطرات الماء من اهتزاز أجسادهن الممتلئة.

ولم ينتظر السقا الغريب هذا حتى أرد فملأ لي زجاجة كبيرة تحوي حوالي لتراتٍ عشرة من الماء وقال بصوته الرهيب:

_ هاا؟ هاتاخديهم في ايه؟

خفت أن أخبره أنني لا أريدهم فلا أستطيع تصور ردة فعله، فقلت له:

- ها.. هاا.. هاروح أجيب حاجة وآجي تاني.

واستدرت لأعود فلم أجد الشارع الذي كنت قد سلكته لتوي، ولكن الكثير والكثير من النساء الجالسات.. وجوههن تبعث على الخوف لسبب لا أدريه..

وفي ساحة يفصلها عن هؤلاء النساء بقايا حائط متهالك.. اصطفت صفوف من السيدات متحلقين فيما يشبه الحضرة، حاولت الاستغاثة بواحدة منهن، وما إن دققت النظر للاختيار حتى تراجَعَت قدماي، كانت جميع النساء تمتلك نفس الأنف الكبير والأعين التي تفترش نصف الوجه، والحواجب الكثيفة..

تراجعت فالتقطتني يد واحدة من الجالسات.

كانت ترتدي عباءة سوداء وغطاء رأس ملفوف بإهمال..

قلت لها: «عاوزة أروح المنشية ممكن حد يدلني على الطريق؟»

فقالت من بين عينيها الماكرتين:

- عندي استعداد أوديكي بس تجيبي جنيه

- جنيه؟ هاديكي اتنين جنيه بس وديني بسرعة.

التمعت عيناها فرحًا، وهممنا بالمشي غير أن صديقتها قامت واجتذبتني من يدي وقالت:

- هوصلها أنا

- أنا اللي خدتها وانا اللي هوصلها

وتشاجرتا على من ستقوم بتوصيلي، وحينها ظهر الرجل الأول في هذا المكان وصرخ فيهما:

- ارجعي مكانك انتي وهي. الدكتور مصطفى هو اللي هيوديها!

من هو الدكتور مصطفى هذا؟ ظهر من وراء النساء شاب طويل يرتدي نظارات نظر ويمشي متثاقلا بين أجساد النساء، كان يُشبه صديقًا قديما ظننته من بعيد هو ولكن لما اقترب كان شخصا آخر.

تبادلنا التحية، ثم اقترب مني.. اقترب مني حدّا أزعجني فقد بدأت أشعر بأنفاسه على وجهي وعيناه ثابتتان على عينيّ ما أفقدني القدرة على قول

شيء، وددت ساعتها لو قال:«أنا بحبك».. اقترب أكثر حتى التصق جسدينا، وقتها تحولت الأمنية إلى يقين..

قال بصوتٍ حاول أن يبدو خفيضًا قدر ما استطاع: «أنا..» ازداد خفقان قلبي واضطرابه، ما يحدث هو أمر غريب بالكلية «أنا.. أنا.. خايف.. جدا.. من المكان دا..خايف»

خائف الثانية هذه خرجت من شفتيه وحلت محلها شفتاي، طبعتا قُبلةً طالت حتى لم نعد نشعر بما حولنا.

فتحنا أعيننا فوجدنا أنفسنا أمام الجندي المجهول.. فركنا أعيننا وقلت له: «إيه المكان اللي احنا كنا فيه دا وجينا هنا ازاي؟»

الفهرس

إهداء ٥

شجاعة ٧

بنت وولد.. .... ١١

غرورٌ قاتل ١٧

في صحبة نجيب محفوظ ١٩

هاتف ذكي.. جدًا ٣٥

صياد نبحث له عن قاتل ٣٩

الكرسي المسحور ٤٥

درية.. بائعة الحلوى ٥١

ميكس شيدر ٥٩

اختلاس ٦٣

الموت ٦٧

نهود ٧٣

قلب يحوي عالما تاه عنه ٧٧

صديقي القمر ٨٣

فلسفة البطاطس ٨٩

في الأرض خليفة ٩٣

كمّاشة.. .... ٩٩

انطوائي شوية ١٠٣

على متن الرحلة التالية ١٠٩

رحلة إلى الجندي المجهول ١١٥

الفهرس ١٢٣